

ديوان الصحافة

الإباضية (٢)

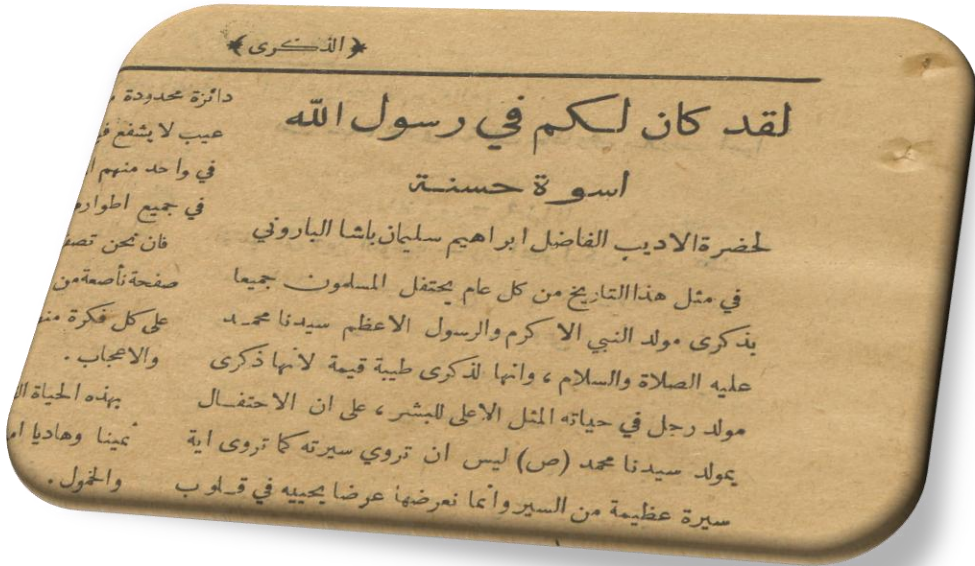
محبوب

الإصدار الرابع عشر بعد المئة

لقد كان لكم في رسول الله

أسوة حسنة

بقلم: إبراهيم بن سليمان الباروني سنة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م



استخرجه وقدم له:

سُلْطَانُ بْنُ مُبَارَكٍ بْنُ مُحَمَّدٍ الشَّيْبَانِي

سلسلة: ديوان الصحافة الإباحية

الحلقة الثانية

لقد كان لحكم في رسول الله أسوة حسنة

بقلم: إبراهيم بن سليمان الباروني سنة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الرقمية الأولى

ربيع الأول ١٤٤٧هـ / سبتمبر (أيلول) ٢٠٢٥م

محبوب

محبوب للنشر الرقمي

مسقط / سلطنة عُمان

البريد الإلكتروني:

mahboub.pd@gmail.com

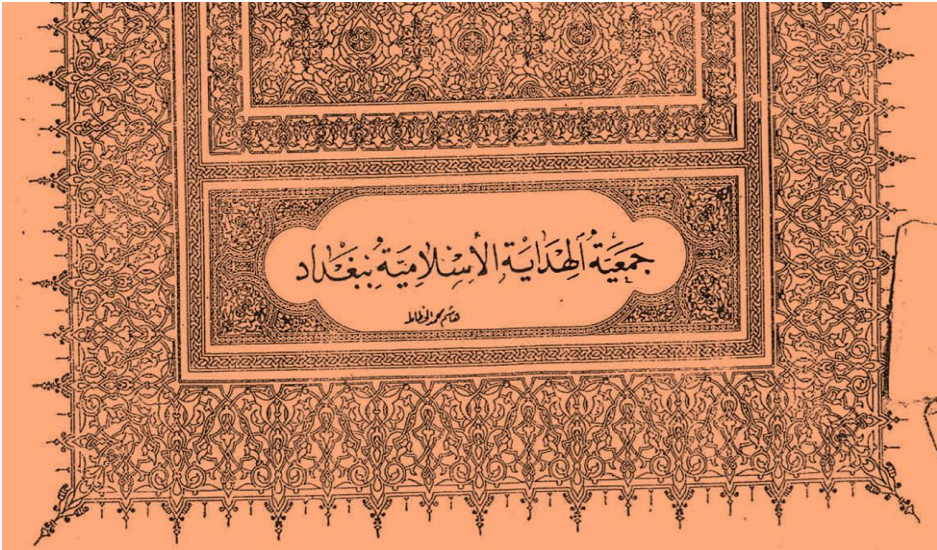
لقد كان لكم في رسول الله
أسوة حسنة

بقلم: إبراهيم بن سليمان الباروني سنة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله،
وعلى آله وصحبه ومن والاه

• بين يدي المقالة:

دأبت جمعية الهداية الإسلامية في بغداد منذ تأسيسها سنة ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٩م على إحياء ذكرى مولد النبي الكريم ﷺ، ثم ارتأت أن تُخصّص عدد مجلتها (الهداية) الصادر في ربيع الأول من كل عام لهذه المناسبة، فكانت تستكتب جمهرة من العلماء الأعلام والكتّاب الأفاضل في سائر البلدان؛ بما تجود به قرائهم، وتُضدّر عددًا خاصًا مُميّزًا.





كان يرأس تحرير مجلة (الهداية): محمد كمال الدين الطائي (ت الجمعة ٢٦ شعبان ١٣٩٧هـ / ١٢ أغسطس ١٩٧٧م)^(١)، وهو آنذاك شاب متوقد حماساً وعزيمة لم يبلغ الثلاثين بعد، وقد راسل في موسم عام ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م

^(١) انظر عنه: الحاج كمال الدين الطائي رائد الصحافة الإسلامية في العراق؛ بقلم: عبد الله بن أحمد الجبوري. مقال منشور في مجلة (عالم الكتب) الصادرة عن دار ثقيف في المملكة العربية السعودية؛ المجلد الثالث (رجب ١٤٠٢هـ / إبريل ١٩٨٢م)، العدد الأول، ص ١١ فيها بعدها.

- في جُمْلَةٍ مَن راسله - الزعيم الليبي الكبير سليمان الباروني (ت ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م)، فلبّي طلبه بحضور شخصه في حفلة المولد ببغداد، واقتدى به ابنه الكاتب الشاب المغمور: إبراهيم بن سليمان الباروني، فكتب مقالة أخرى، نُشرت في عدد ذلك العام.



تَضَمَّنَ عددُ ذلك العام كلماتٍ ومقالاتٍ لفرسان القلم في العالم الإسلامي؛ كمصطفى صادق الرافعي، وعبد الوهاب عزام، ومحمد بن خيت المطيعي، ومحمد عبد الله عنان، وعباس العزاوي، ومصطفى الغلاييني،

وأكرم زعيترو، وطه الراوي، ونعمان الأعظمي، وسليمان الندوي، وموسى جار الله التركي، ومحمد تقي الدين الهلالي، ومحمد المأمون النيفر، مع لفيف من قصائد الشعراء.

وكان سليمان الباروني في تلك المدة يتردد بين عُمان والعراق، بعد أن ضاقت عليه الأرض، بسبب تكالب دُول الغرب عليه، وسقوط الخلافة العثمانية، ومنعه من دخول عددٍ من الدول. ففضى السبع عشرة سنةً الأخيرة من حياته أكثرها في عُمان، مع سيرةٍ وجيئةٍ إلى العراق.

وكانت أول مرة يحطّ فيها رحاله بِعُمان أواخر ذي الحجة ١٣٤٢هـ/ أواخر يوليو ١٩٢٤م، عندما وَقَفَتْ به الباخرةُ قادمةً من الحجاز في ميناء مسقط، واستقبله وزراء حكومتها نظرًا لكون السلطان تيمور بن فيصل (١٣٣١ - ١٣٥٠هـ / ١٩١٣ - ١٩٣٢م) غائبًا في الهند، كما أرسل له الإمامُ محمد بن عبد الله بن سعيد الخليلي (١٣٣٨ - ١٣٧٣هـ / ١٩١٩ - ١٩٥٤م) رسالة ترحيبية من مقر إمامته في نزوى.

ثم عَزَمَ الباروني على السياحة في دواخل عُمان، فخرج من مسقط أواخر صفر سنة ١٣٤٣هـ/ أواخر سبتمبر ١٩٢٤م، واستمرت سياحته في عمان وحواضرها لِمُدَّةٍ أربعة أشهر ونصف تقريبًا، حتى شهر رجب ١٣٤٣هـ/ فبراير ١٩٢٥م. ثم ساح سياحةً ثانية بدأت غُرَّةَ ذي الحجة سنة ١٣٤٣هـ/ يوليو ١٩٢٥م، وانتهت أواخر شعبان ١٣٤٤هـ/ مارس ١٩٢٦م.

استقر الباروني بِعُمان متنقلاً بين بلدان الساحل والداخل، حتى غادرها للعلاج إلى العراق أوائل سنة ١٣٤٨هـ/ أواخر سنة ١٩٢٩م ومكث

قراة أربعة أشهر ثم رجع. وقد لحقت به أسرته من طرابلس في ليبيا للإقامة بعمان سنة ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م، غير أن أفراد الأسرة أصيبوا بالملايا، وما لبثت أم زوجها أن توفيت فور وصولها يوم ٢٦ شعبان ١٣٥٠هـ / ٥ يناير ١٩٣٢م، فمكث بمسقط قليلا، ثم سافر في صفر ١٣٥١هـ / يونيو ١٩٣٢م إلى بغداد مرة أخرى لعلاج عائلته، ورجع إلى عمان وحده بعد سنة كاملة.

وسعى خلال تلك المدة إلى البحث عن مستقر كريم لعائلته، فلم تفلح جهوده، وتركهم في بغداد مؤقتا؛ خاصة بعد أن استطاع إلحاق ابنه إبراهيم بكلية الحقوق في بغداد، وظل يتردد بين مسقط وبغداد مرارا للاطمئنان عليهم، إلى سنة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م إذ حضر عائلته من بغداد في ربيع الآخر/ مايو، عازما على الاستقرار بمسقط بعد تحسن أحوالهم، غير أن المرض اشتد عليه هو هذه المرة، فغادر برفقة السلطان سعيد بن تيمور وعدد من حاشيته إلى الهند للعلاج، وهناك فارق الحياة يوم ٢٣ ربيع الأول ١٣٥٩هـ / ١ مايو ١٩٤٠م.

وهذه المقالة التي أنشرها اليوم مقتبسة من العدد الخاص لمجلة (الهداية) تحت عنوان: «ذكرى ١٢ ربيع الأول لسنة ١٣٥٣هـ»، وقد وقفت على نسخة أصلية منه في خزانة الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري (ت ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م)، وفي صدرها بخط الباروني إهداء قال فيه: «لحضرة العلامة الرئيس الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري؛ المحترم».

لحقة العلامة الرشي الشيخ الهميد ~~العبدي~~ المحترم

رَبِّعِي

١٢ ربَّيعِ الأوَّل

لسنة ١٣٥٣

وُلِدَ الْمَدِينُ فَالْكَائِنَاتُ ضَبَّةٌ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَتَنَاءٌ
الرُّوحُ وَالْمَلَأَ الْمَلَأُكَ حَوْلَهُ لِلدِّينِ وَالْذِّيَابَةِ بُشْرَاءُ
وَالْعَرَشِ يَرْهُو وَالْخَطَرَةُ رَدِّي وَالْمُنْتَهَى وَالْمُسْتَدْرَةُ الْعَصَاءُ
اسْمُ الْجَلَالَةِ فِي بَدْعِ حُرُوفِهِ أَلْفٌ هُنَا لَكَ وَاسْمُ طَلَبِ الْيَاءِ

اصدرتها جمعية الهداية الاسلامية في بغداد

رئيس التحرير المسؤول

محمد جمال الدين

مطبعة بغداد

أما إبراهيم بن سليمان الباروني فقد وُلِدَ في جادو بجبل نفوسة سنة ١٣٢٩هـ / ١٩١١م، وتزامنَتْ ولادَتُهُ مع بداية الاحتلال الإيطالي للبييا. تَقَلَّبَ منذ طفولته مع أبيه في سائر أدواره رخاءً وشِدَّةً، والتجأ طفلاً صغيراً مع عائلته إلى تونس، وتلقى مبادئ علومه في تركيا، ثم أرسله أبوه إلى مدرسة بالإسكندرية في مصر سنة ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م فواصل تعليمه المدرسي بها.

ثم عاد إلى طرابلس ولبث بجنب العائلة أيَّامَ محنة أبيه بالاغتراب، وتزوج ابنة عمه مريم بنت أحمد البارونية، وارتحل إلى مسقط مع العائلة سنة ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م، غير أن الأمراض أَلَمَّتْ بهم - كما سبق ذكره - فخرجوا إلى بغداد ومكثوا بها ثماني سنوات، وكان إبراهيمُ يدير شؤونهم، وأبوه يتردد عليهم من عُمان بين الفينة والأخرى. وفي هذه المدة التحق إبراهيم بكلية الحقوق في بغداد، لكن لم تساعده الظروف لمواصلة الدراسة، فوظَّفه الملكُ غازي بن فيصل في ديوانه الملكي.

وفي ربيع الآخر سنة ١٣٥٨هـ / مايو ١٩٣٩م التحقت العائلة بالشيخ سليمان في عُمان، وتَخَلَّفَ إبراهيم عنهم لارتباطه بالعمل، وتوفي والدُه بعد سنة سنة ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م فلم يَقْدِرْ على الانضمام إلى العائلة بسبب مرضٍ أَلَمَّ به. وبقيت أمُّه وأختاه وزوجتُه وولده في عُمان مُدَّةَ سبع سنوات.

وفي جمادى الآخرة ١٣٦٦هـ / مايو ١٩٤٧م جَمَعَ اللهُ شملَ العائلة مرة أخرى، فغادرت مسقط في الباخرة، والتحقت بإبراهيم في بغداد، ثم واصلوا المسير معاً إلى الشام فمصر حتى وصلوا إلى طرابلس.

وَرِثَ إبراهيم - كما يقول الشيخ أبو اليقظان - خِلالَ والده من ذكاء وفطنة وطموح، وكان له نثرٌ رائق وشعر فائق^(٢)، وقد نُشِرَتْ مقالاته وقصائده صحفُ العراق والشام ومصر والجزائر وليبيا^(٣). ومن أشهر كتبه المنشورة: «بشائر الإسلام وتَقَدُّمه»؛ طبعته جمعية التمدن الإسلامي بدمشق سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.

والمُتأمل في مقالته التي ننشرها هنا يدرك أن في الولد هبةً من أبيه، ونفحةً من نفحات أدبه، ونَفَسًا من أنفاس ثورته وجهاده، وأنه يكتب بقلم هادئ، وفكر متزن، متسلسل الرؤى ومُسَدَّد القصد.

توفي إبراهيم في ليبيا في ذي القعدة ١٤١٦هـ/ إبريل ١٩٩٦م.

^(٢) انظر: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته؛ بقلم: أبي اليقظان الحاج إبراهيم. ط ١: ١٣٧٦هـ/

١٩٥٦م. المطبعة العربية/ الجزائر. ج ٢/ ص ٢٣٤.

^(٣) يمكن تصفح بعض مقالاته في موقع شبكة الألوكة: www.alukah.net.

مطبوعات : جمعية التمدن الاسلامي بدمشق

(١)

بشائر الاسلام وتقدمه

(نور الاسلام وسبيل العرب إلى المرونة)

{ رسالة مهداة لجمعية التمدن الاسلامي بمناسبة
ذكرى المولد النبوي لعام ١٣٥٦ }

تأليف الأستاذ :

ابراهيم الباروني

تمن النسخة خمسة قروش سورية (فراك)
وعشرة فلوس في العراق

١٣٥٦ هـ مطبعة الترقى بدمشق ١٩٣٧ م

لقد كان لكم في رسول الله

أسوة حسنة

لحضرة الأديب الفاضل إبراهيم سليمان باشا الباروني

في مثل هذا التاريخ من كل عام يحتفل المسلمون جميعاً بذكرى مولد النبي الأكرم والرسول الأعظم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وانها لذكرى طيبة قيمة لانها ذكرى مولد رجل في حياته المثل الأعلى للبشر ، على ان الاحتفال بمولد سيدنا محمد (ص) ليس ان تروى سيرته كما تروى اية سيرة عظيمة من السير وانما نعرضها عرضاً يحبه في قلوب المسلمين ، وبلى مكانه في نفوس الجاهليين ، ويهدى الى الحق كثيراً من الضالين ، ويبيد الرجاء والامل في كثير من المستيسين .

فجدير بنا ان ننظر في هذه الحياة النبيلة والسيرة الجليلة نظر التأسي والاعتبار .

قبل اربعة عشر قرناً تقريباً ولد محمد بن عبد الله العربي الامي صلى الله عليه وسلم . فكان مولده حدثاً بديلاً مجرى التاريخ لم تشهد الدنيا حدثاً مثله ، فما اتقضى على مولده اقل من نصف قرن حتى كان عليه الصلاة والسلام في سبيل دعوة غدت فيما بعد دستوراً وديناً لمئات الملايين من المؤمنين شادوا ملكاً وابدعوا حضارة وملأوا الارض رحمة وعدلاً . فان فاخرت الامم برجالها التابعين وعظماؤها المفكرين الذين احدثوا الثورات الاجتماعية ورسموا مثلاً ومبادئ للانسانية جديدة ، حق للمسلمين ان يفاخروا العالم كله بالنبي العربي الأكرم ، فما من عظيم في الشرق او في الغرب الا وكانت في حياته هنات تشوب عظمته . ونقص يقف بها ضمن

دائرة محدودة من الزمان والمكان والظروف ، ان لم يكن عيب لا يشغ فيه عند الناس وقار العلم وجاه التبوع . فليس في واحد منهم المثل الاعلى الذي يصح ان تتخذه الانسانية في جميع اطوارها وحالاتها هدفاً وقدوة .

فان نحن تصفحنا حياة هذا النبي الامي الكريم وجذباها صفحة ناصعة من نور الفضيلة والظهر والكمال تفرض سلطانها على كل فكرة منصف وتنزل من تقديره منزل الاكابر والاعجاب .

بهذه الحياة القيمة تزخر كتب المسلمين وان فيها للخشوع عينا وهاديا امينا للمسلمين في عصرهم هذا عصر الذلة والخرول .

ولكن ، مع الاسف ، في غرة هذه المدينة الثرية الخادعة عثيت ابصارنا عن ان تدرك لهذا الذخر قيمته وعيت افهامنا عن ان تترك للهداية المصادقة معني ، واتخذنا من الغربيين اصناماً نحذو خذوهم ونسلك سبيلهم الى كل قصد وغاية . فهابث التقليد الامعي ان اسلمنا الى خيصال والثالث الامر علينا حتى مانكاد نميز الحق من الباطل ولا الرشد من الغي ولكننا ذلك كله نلسنا ابواب الخلاص اجمعها الاباب اخلاص الاكيد .

ان اكبر ضعف في نهضة المسلمين اليوم هو افتقارهم الى مثل يمدل اليأس المتحكم في نفوسهم بالامل والرجاء ، واليقين المرعزع في وجدانهم بالثقة في الله ، وطفان المطامع الفردية بخلاص القصد في العمل لوجه الله . ذلك ان بعض المسلمين بلغ من اليأس حيث اصبحوا لا يؤمنون بالنجاة هذه العاشية التي غشيت الشرق اكثره الا بمعجزة من السماء ، وبلغ بهم الاعتقاد في ضعف انفسهم والايان بقوة الغرب درجة القنوط التي لا يرجو معها صاحبها خلاصاً ولا نجاة وان هذا

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة

لحضرة الأديب الفاضل: إبراهيم بن سليمان باشا الباروني

في مثل هذا التاريخ من كل عام يحتفل المسلمون جميعًا بذكرى مولد النبي الأكرم والرسول الأعظم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وإنها لَذِكْرٌ طَيِّبٌ قِيَمَةٌ، لأنها ذكرى مولد رجلٍ في حياته المَثَلُ الأعلى للبشر، على أن الاحتفال بمولد سيدنا محمد ﷺ ليس أن تُروى سيرته كما تُروى أية سيرة عظيمة من السَّيَر، وإنما نعرضها عرضًا يُحْيِيهِ في قلوب المسلمين، ويُعَلِي مكانه في نفوس الجاهلين، ويهدي إلى الحق كثيرًا من الضالين، ويبعث الرجاء والأمل في كثير من المُسْتَيْئِسِينَ.

فجديرٌ بنا أن ننظر في هذه الحياة النبيلة والسيرة الجليلة نَظَرَ التَّأْسِي والاعتبار.

قبل أربعة عشر قرنًا تقريبًا وُلِدَ محمد بن عبد الله العربي الأُمِّي ﷺ، فكان مولده حَدَثًا بَدَّلَ مجرى التاريخ، لم تشهد الدنيا حدثًا مثله، فما انقضى على مولده أقلُّ من نصف قرن حتى كان عليه الصلاة والسلام في سبيل دعوة غَدَتْ فيما بَعْدُ دستورًا وِدِينًا لمئات الملايين من المؤمنين، شادُوا ملكًا، وأبدعوا حضارةً، وملأوا الأرض رحمة وعدلا.

فإن فاخترت الأممُ برجالها النابغين وعظماؤها المفكرين، الذين أحدثوا الثورات الاجتماعية، ورسوموا مثلاً ومبادئ للإنسانية جديدةً؛ فحقَّ للمسلمين أن يُفاخروا العالمَ كله بالنبي العربي الكريم، فما مِن عظيمٍ في الشرق أو في الغرب إلا وكانت في حياته هَنَاتٌ تُشوبُّ عظمتَه، ونقصٌ يقف بها ضمن دائرةٍ محدودة من الزمان والمكان والظروف، إن لم يكن عيبٌ لا يَشْفَعُ فيه عند الناس وقارُ العلم وجاهُ النبوغ. فليس في واحدٍ منهم المثلُّ الأعلى الذي يصح أن تتخذه الإنسانية في جميع أطوارها وحالاتها هدفاً وقدوة.

فإن نحن تَصَفَّحْنَا حياة هذا النبي الأُمِّي الكريم وجدناها صفحة ناصعة من نور الفضيلة والطهر والكمال، تَفَرِّضُ سلطانها على كُلِّ فكرة مُنْصَفٍ، وتَنْزِلُ من تقديره منزلَ الإكبار والإعجاب.

بهذه الحياة القيمة تزخر كتبُ المسلمين، وإنَّ فيها لَدُخْرًا ثمينًا، وهاديًا أمينًا للمسلمين في عصرهم هذا عصر الذلة والخور.

ولكن - مع الأسف - في عَمْرَةٍ هذه المدنية الغربية الخادعة عَشِيَتْ أَبْصَارُنَا عن أن تُدرك لهذا الذخرِ قيمته، وعَيَّتْ أَفْهَامُنَا عن أن تدرك للهداية الصادقة معنى، واتخذنا من الغربيين أصنامًا نحذو حذوهم، ونسلك سبيلهم إلى كل قصد وغاية. فما لبث التقليد الأعمى أن أَسْلَمَنَا إلى خيالٍ، والتَّاتَ^(٤) الأمرُ علينا حتى ما نكاد نَمِيزُ الحقَّ من الباطل، ولا الرُّشْدَ

(٤) التَّاتَ: أي اختلط.

من الغيِّ، ولكنّا - [مع] ذلك كله - تَلَمَّسْنَا أبوابَ الخلاص أجمعها؛ إلا باب الخلاص الأكيد!

إنَّ أكبرَ ضعفٍ في نهضة المسلمين اليوم: هو افتقارهم إلى مثلي؛ يُبدِّل اليأسَ المتحكم في نفوسهم بالأمل والرجاء، واليقينَ المُزعزعَ في وجدانهم بالثقة في الله، وطغيانَ المطامع الفردية بِمُخلوص القصد في العمل لوجه الله^(٥).

ذلك أن بعض المسلمين بَلَغَ مِنَ اليأس حيث أصبحوا لا يؤمنون بانجلاء هذه الغاشية التي غَشِيَت الشَّرْقَ أكثره إلا بمعجزةٍ من السماء، وبلغ بهم الاعتقادُ في ضعفِ أنفسهم والإيمانِ بقوة الغرب درجةَ القنوط؛ التي لا يرجو معها صاحبُها خلاصًا ولا نجاة، وإنَّ هذا الاعتقادَ وحده كافٍ للقضاء على كل سعي أو كفاحٍ بالخيبة والفشل.

أما ثقتنا في الله فليس أدلَّ على مبلغ قوتها من تعويلها في قياس قُوانا بِقُوى الغرب على الوجهة المادية البحتة، متخذين من التفاوت في ذلك مبررًا لليأس والاستسلام، كأنَّ الله ليس في الحساب، وكأنَّ الصراع بين الحق والباطل فوضى، لا حاكمَ لها غير المادة الصماء!

إلا أن إيماننا بالحق الذي نطلبه إيمانٌ تَصَدَّعُهُ أهْوَنُ صدمة، ولو أننا آمنا بمقننا وبَدَلْنَا في سبيله مخلصين جَهَدْنَا لكان الله - ولا شك - معنا،

(٥) هذه عناصر ثلاثة، أَجْمَلَهَا الكاتبُ في هذه الفقرة، ثم فَصَّلَ الحديثَ عنها واحدًا واحدًا فيما يلي.

مِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ - وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ - : ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وَأَمَّا إِخْلَاصُ الْقَصْدِ فِي الْعَمَلِ لَوَجْهِ اللَّهِ فَقَدْ أَضَلَّنَا عَنْهُ بَهْرَجُ الْغَرْبِ الزَّائِفِ؛ مِنْ سِيَاسَةٍ مَلْتَوِيَةٍ، وَمَادِيَّةٍ غَاوِيَةٍ، وَتَقَلُّبٍ مَعَ رِيحِ الْقُوَّةِ، وَاسْتِكَانَةِ يَزْعَمُ الزَّاعِمُونَ أَنَّهَا الْحِكْمَةُ وَالْدِهَاءُ، وَمَا هِيَ - لَعَمْرُ الْحَقِّ - غَيْرُ تَسْلِيمِ النِّفَاقِ وَالرِّيَاءِ.

وَلَوْ أَنَّا سَلَكْنَا خُطَّةَ مُثَلًى مِنَ الْإِسْتِقَامَةِ وَالْوُضُوحِ فِي الْقَصْدِ وَالْعَمَلِ، وَذُدْنَا عَنْ أَنْفُسِنَا غَوَايَةَ الْمَالِ وَالْجَاهِ، وَصَبَرْنَا عَلَى الشَّدَائِدِ، وَجَعَلْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فِي نِضَالِنَا وَجْهَتِنَا وَمَصْدَرَ يَقِينِنَا؛ لَمَشَتْ الدُّنْيَا الْيَوْمَ بَيْنَ أَيْدِينَا كَمَا مَشَتْ بَيْنَ يَدَيِ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ وَمَنْ بَعْدَهُمَا، قَبْلَ ثَلَاثَةِ عَشَرَ قَرْنًا مِنْ دَوْرَةِ الزَّمَنِ.

جَمَاعُ هَذِهِ الْمُثُلِ الَّتِي نَفْتَقِرُ إِلَيْهَا فِي إِصْلَاحِ أَنْفُسِنَا وَتَدْعِيمِ نَهْضَتِنَا، لَنَكُونَ أَقْوِيَاءَ عَلَى الْكِفَاحِ، وَتَكُونَ مُجْدِيَّةً مَثْمَرَةً؛ فِي سِيرَةِ نَبِينِنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

بُعِثَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ فِي أُمَّةٍ مِنْ أَعْرَاقِ الْأُمَمِ فِي الْبَدَاوَةِ، فَرَّقَتْهَا الْعَصْبِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ، وَأَضَلَّتْهَا الْوُثْنِيَّةُ الْبَاطِلَةُ، وَأَعْصَلَتْهَا الْأَمْرَاضُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ، وَهِيَ عَلَى ذَلِكَ لَا يَفْتَأُ بَيْنَهَا تَنَازُعُ الْبَقَاءِ، فَكَانَتْ يَوْمَ بَعْثِهِ أَشْلَاءَ مَرَقَّتْهَا الثَّارَاتُ، وَنَهَكَهَا الْفَقْرُ، وَتَغَشَّاهَا ظِلَامُ الْجَهْلِ، فَهِيَ مِنَ الضَّعْفِ الْمَادِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ بَحِيثٌ لَوْ كَانَ فِيهَا مَطْمَعٌ لَكَانَتْ نَهْبًا مُقَسَّمًا بَيْنَ الْفَرَسِ وَالرُّومِ.

بُعِثَ سيدنا محمد في أمةٍ تلك حالها، وهي - بلا ريب - أسوأ حالةٍ تكون عليها أُمَّةٌ، لِيُخْرِجَهَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِ، لِيَجْمَعَ شَتَاتُهَا الْمَفْرَقَ، وَيَرْتُقَّ شَمْلُهَا الْمَمْرَقَ، وَلِيَصْرِفَهَا عَنِ الْوُثْنِيَّةِ إِلَى دِينِ التَّوْحِيدِ. وَفِي إِيجَازٍ: لِيُكَوِّنَ مِنْ ذَلِكَ الْحَطَامِ الْوَاهِنِ أُمَّةً حَيَّةً تَصَارِعُ الْعَالَمَ الْمُتَمَدِّنَ يَوْمئِذٍ، الْمُعْتَزِّ بِصَوْلَتِهِ وَقُوَّتِهِ، فَتَصْرَعُهُ وَتَكْتَسِحُهُ، وَهِيَ هِيَ مِنْ بَدَاوَتِهَا وَسَدَاجَتِهَا وَقَلَّةٍ عَدِيدِهَا وَعُدَّتِهَا، وَلَكِنَّهَا حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَبْلُغَ فِي أَثَرِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ مِنْ صَدَقِ الْيَقِينِ وَقُوَّةِ الْإِيمَانِ.

تَحْمَلُ نَبِيُّنَا ﷺ هَذَا الْعَبَاءَ الثَّقِيلَ مِنْذُ الْبَدَايَةِ وَحْدَهُ، وَمَضَى فِي سَبِيلِ إِنْجَازِ مَهْمَّتِهِ فِي أُنَاةٍ وَصَبْرٍ وَثَبَاتٍ، مُغَالِبًا كُلَّ بَوَاعِثِ الْيَأْسِ وَعَوَامِلِ الْفَشْلِ، وَفِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى مِنْ جِهَادِهِ وَجِهَادِ أَوَّلِ الْمُؤْمِنِينَ يُسَجَّلُ التَّارِيخُ أَسْمَى مِثَالٍ لِلتَّضَحِّيَةِ فِي سَبِيلِ الْعَقِيدَةِ، وَأَنْبَلَ صُورَةٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ الْكَرِيمَةِ الطَّاهِرَةِ: تُقَابِلُ الْعَدَوَانَ بِالْغُفْرَانِ، وَالْإِسَاءَةَ بِالْإِحْسَانِ، وَهِيَ فِي كُلِّ ذَلِكَ لَا تَنِي فِي جِهَادِهَا وَلَا تَهِنُ، حَتَّى نَهَضَتْ عَلَى قَدَمٍ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْأَيِّدِ.

يَوْمئِذٍ غَدَا الْأَمْرُ حَرْبًا شَعَوَاءَ لَا هَوَادَةَ فِيهَا وَلَا لَيْنَ، وَكَانَ الْأَوَّلَى أَنْ يُبَدِيَ الْمُسْلِمُونَ كُلَّمَا وَاتَاهُمُ النَّصْرُ مِنْ مَظَاهِرِ التَّشَفِّيِّ وَالْإِنْتِقَامِ مَا يَمْحُو حَسَابَ بَلَائِهِمْ يَوْمَ كَانُوا قَلَّةً مُسْتَضْعَفِينَ، وَلَكِنَّ رُوحَ الْإِسْلَامِ الطَّاهِرَةِ وَسَجَايَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ تَأَبَّى إِلَّا الشَّهَامَةَ وَالنَّبْلَ، فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ عَلَى السَّوَاءِ.

وَلَقَدْ مُنِيَ الْمُسْلِمُونَ بِالْهَزِيمَةِ وَهُمْ يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَمَا تَزَعَزَعَتْ عَقِيدَتُهُمْ فِي اللَّهِ وَلَا فِي الرَّسُولِ، وَأُصِيبَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي

تلك الغزوات بما يُصاب به أيُّ بشرٍ مُحَارِبٍ؛ مِنْ نكثِ العهود، ومخالفة الأعداء، فضلاً عما أصيب به ذاتُ نفسه، فما كان ذلكَ لِيُوهِنَ مِنْ ثِقته في الله، أو يَصْرِفَهُم عن المضيِّ في نصرته، وما كان ذلكَ ليزيدهم إلا مضاءً وثباتاً، حتى جاءهم نصرٌ من الله وفتح قريب، وظهر الحق على الباطل، وأصبحوا هم الغالبين.

هذه صورةٌ مُجَمَّلَةٌ من جهاد النبي ﷺ والمؤمنين، في عبارة موجزة واضحة، يدرك المتأمل فيها عناصرَ القوة القاهرة التي صرعت قوى الضعف، وعناصرَ النجاح الموفق التي غلبت عوامل الفشل.

وما بَلَغَ النبي ﷺ ما بَلَغَ مِنْ نصرٍ وَظَفَرٍ لَأَنَّهُ نبي ورسول فحسب، بل لَأَنَّهُ كان قبل كل شيء على أيقن اليقين فيما يدعو إليه من حق، وكان على أوثق ما يكون امرؤٌ مِنْ رحمة ربه ونصرته، وكان أَخْلَصَ ما يكون عليه إنسانٌ سريرةً في كُلِّ ما يعمل ويقول، وكذلك كان أصحابه ﷺ ورضي عنهم أجمعين. وها هنا ما نحن في أشد الحاجة إليه مِنْ مَثَلٍ بِرُمَّتِهِ.

بهذه القوى الثلاث فَتَحَ عربُ الجزيرة المسلمون مشارقَ الأرض ومغاربها في أقل من نصف قرن، وكأنما كانوا إحدى عواصف الصحراء، لا يُجْدِي في صَدِّهَا سيفٌ ولا مدفعٌ ولا مألٌ ولا رجالٌ!

والعالم الإسلامي المَهِيضُ الجناح اليوم ليس بينه وبين العز الذي يَنْشُدُهُ إلا أن يتدرَّع رجاله باليقين فيما يدعون إليه من حق، والثقة في رحمة الله ونصرته، والإخلاص في القول والعمل، وإذا كان من العسير أن ندرك شأوَ النبي الكريم وصحبه لتركيز هذه القوة في نفوسنا؛ فلا أَقَلَّ مِنْ أن

نستعين على ذلك بإحياء سيرته ماثلةً بيننا، تُدَكِّرُنَا بما يجب علينا، ونهتدي على نورها إلى سبيل الرشـد والتوفيق.

لقد كان محمد عليه السلام مثلاً أعلى ولا يزال. لقد كان مثلاً أعلى للرجل كـفردٍ يعيش ليوَفِّق في الدنيا لخير الدنيا، ويسعد في الآخرة بالرضا من ربه والنعيم في جنته. وَلِلرَّجُلِ كَرَبٌّ أَسْرَةٌ يُضْفِي على أهله فيضَ الوئام والحنان. وَلِلرَّجُلِ كزعيم أُمَّةٍ يقودها أبداً إلى مطالع الخير والسعادة. وَلِلرَّجُلِ كصاحبٍ دعوةٍ لا يَأُلُو جَهْدًا وصبرًا حتى يَخْرُجَ بها إلى النور، مرفوعةً اللواء، مشرقةً الجبين، شامخةً البنيان.

لقد كان عليه السلام مثلاً أعلى للفضيلة تَسُودُ على الرذيلة في عصر الرذيلة، وَلِقُوَّةِ العقيدة تَسْخَرُ من المحنة والبلاء، في ظلمةٍ لا يُنِيرُ جوانبها غيرُ نور اليقين والثقة في أحكم الحاكمين.

فلنقرأ سيرة سيدنا محمد وأصحاب سيدنا محمد، ففيها لنا أَكْمَلُ مثل؛ أفرادًا وجماعاتٍ وأُمَّةً، ولنجعلها غذاءً لهذه الشبيبة الناشئة وهي في نضارة العود وصفاء النفس وطهارة الوجدان، فإنها خليقةٌ بأن تُنَجِّبَ منهم للإسلام أشبالاً كأمثال عمر وخالـد وأبي عبيدة، يعيشون من أجله، ويموتون لأجله، لا ينالهم في سبيله ضعفٌ ولا فتور. وَفَقَّنَا الله أجمعين.